حول
"التوراة جاءت من جزيرة العرب"

د. كمال الصليبي

مراجعة: فرج الله صالح ديب

«التوراة جاءت من جزيرة العرب»، كتاب د. كمال الصليبي الذي لاقى من الضجة قبل صدوره ما لم يلاقه كتاب عربي حتى الآن. وبعد ترجمة الكتاب الى العربية، منع من دخول ذاك البلد، ومنع الحديث عنه سلباً أو إيجاباً في بلد آخر. صمت الذين ضجوا، وأحجم آخرون عن التناول قصوراً، إلا قلة من المقالات الهامشية وإن كانت هزيلة بألقاب أكاديمية. محور الكتاب أن المسرح التاريخي الجغرافي لقبائل وأنبياء التوراة هو في غرب شبه الجزيرة العربية. وقد استطاع الكاتب أن يحدد الأمكنة وأن يصحح القراءة التوراتية ضمن منهج ومراجع لا يشك بها، وإن كان الكشف الأثري الصخري هو الوحيد الذي يزيد اليقين يقيناً. لقد تناولنا هذا الكتاب في أبحاث أربعة مقارنة[1]:

- ما قاله المؤرخون العرب.
- ما جاء من تقارب لغوي.
- تقارب العبادات الجاهلية مع عبادات التوراة.

نوجز هذه الأبحاث لأنها مقدمات لهذا المقال عبر نقاط أساسية منها: أن فكرة البحث عن مسرح قبائل وأنبياء التوراة في الجزيرة، فكرة قديمة استطاع الدكتور صليبي أن يحققها. كما أن القرآن الذي خاطب القوم بألف آية تناولت أنبياء التوراة وآخرين لم يُذكروا شدّد على التزوير والتحريف بمواد التوراة عبر النطق واللهجات. (يحرفون الكلم عن مواضعه ـ المائدة 13) ولم يشر الى مصر الدولة أو فرعون مصر الدولة التاريخية. في حين أن الطبري يؤكد على أن فرعون مصر (مدينة مصر كما عند الصليبي) كان اسمه سنان بن علوان بن عملاق بن لاوذ، وأن الوليد بن الريان كان فرعوناً أيام يوسف. ويؤكد المسعودي على أن لسان اسماعيل كان سريانياً. بينما يرى الطبري أن آدم وشيت ونوح وخنوخ سريانيو اللسان. وحتى الأمس القريب كانت الأبجدية السريانية العبرية (أبجد هوز حطي كلمن سعفص قرشت) أبجدية التعليم في الكتاتيب

والمدارس، وإن كان المسعودي يجتهد في أنها أيضاً أسماء ملوك من العرب البائدة. من ناحية العبادات، فإن عبادة الرجمة والشجرة والبعل وايل والشمس والقمر والزهرة والأنصاب عبادات واردة في التوراة وفي الثقافة الشعبية العربية الجاهلية، في حين أن التكنية بأسماء عبد ايل، عبد بعل، عبد ود واضحة في الأسماء العربية القديمة.

السؤال الآن هو: هل من ملامح مشتركة بين الثقافة الشعبية في الجزيرة العربية، وبعض ما ورد في قصص وحكايات دوّنها «المصوريتيون» في التوراة؟ قبل الإجابة نحدد مفهومنا للثقافة الشعبية التي نوجزها بأنها: جملة المفاهيم والمعتقدات والعادات والطقوس ـ السلوك ـ والآداب الشعبية المتناقلة شفهياً. وهذه الآداب تشمل الشعر والحكم والأمثال والقصص والحكايات والغناء... وإذا كانت بعض المفاهيم والمعتقدات قد قُنِّنَتْ تشريعياً، فيما بعد في الكتب الدينية، فإننا نأخذها بتاريخيتها. وإن كنا نورد هنا بعض الملامح المشتركة، فإننا نشدد على كلمة البعض، لأن القضايا المشتركة عديدة جداً تؤكد فعلاً ما ذهب إليه الصليبي في اكتشافه.

هل التوراة شعر من أوزان الرجز!؟

يقول د. كمال الصليبي إن «المصوريتيين» وهم فئة من الأحبار، دوّنوا التوراة بلهجتهم وحرَّفوا في الكلام. لكن السؤال الذي يبقى أنهم دوّنوا عن ماذا؟ الأمثولة التاريخية الثابتة أن القرآن دُوِّن أيام الخليفة عثمان بعد أن كان تناقله حفظاً وبلهجات عدة. فماذا عن التوراة التي ترجع قصصها الى آلاف السنين وقد دُوِّنَتْ في القرن السادس الميلادي تقريباً؟ الجواب البديهي أن القبائل الرعوية المتنقلة تعتمد الحفظ كما في القصص والشعر والغناء لأنها ليست صاحبة حضارة زراعية ثابتة. وهذا الحفظ عن رواة قالوا كذا وكذا عن ابراهيم واسحق وسليمان هو عين الحفظ أو المعرفة المتناقلة التي كانت سائدة في الجزيرة عن التوراة، وقد جاءت الآيات تخاطب القوم بمسائل ليسوا غائبين عنها. لكن هذا التناقل إذا لم يكن في قالب لحني أقرب الى الشعر صعب حفظه وسهل تحويره. وهذا ينطبق أيضاً على الحِكَم والأمثال: (لا الملفوف بيلوي سيوف ولا البطيخ بيكسر سيخ. مساء النوري ولا مساء الخوري. عادة بالبدن ما بتروح إلا بالكفن...). والقرآن بآياته وبما يحتويه من رنّة موسيقية سَهَّلَتْ حفظه، ولذلك قال المعارضون إنما هذا شاعر مجنون. وإذا عكسنا المسألة اليوم على التوراة والأناجيل، فإن حفظها صعب بل ومستحيل في حين أن حفظة القرآن كثر. إذاً الرنة الموسيقية السجعية تنطبق على التوراة كما تنطبق على الملاحم والأساطير الباقية من الحضارات القديمة المدونة في مقاطع منفصلة، بل إن نشيد الأنشاد والمزامير يؤكدان على ذلك.. في حين أن جرجي زيدان وجد أن «سورة ومسورة» الواردة عربياً وعبرياً، إنما تعني رتّل وأنشد. ويقول في ذلك ول ديورانت صاحب مؤلف قصة الحضارة: «نحس في هذه الأناشيد بأوزان الشعر الشرقي القديم، ونكاد نسمع فيها أصوات المرنمين وهم يرددون على المنشدين، وليس في الشعر كله ما يفوقه في تشبيهاته وتصويره. وعن المزامير يقول: «قد تكون مجموعة من الأغاني البابلية الأصل، نشيداً بذكرى عشتار وتموز، وقد تكون من وضع جماعة من شعراء الغزل العبرانيين تأثروا بالروح الهلينية التي دخلت الى بلاد اليهود مع الاسكندر الأكبر[2]. هذا مع الملاحظة أن ول

ديورانت مع الفكرة السائدة بأن مسرح التوراة هو في فلسطين. وعن أيوب الذي كانت تقام ذكراه السنوية حتى الأمس القريب على شاطىء «الرملة البيضاء» في بيروت في يوم أربعاء من شهر نيسان، والذي من طقوسه الاستحمام لفض الذنوب، يقول جرجي زيدان: «المرجع عند الباحثين أن صاحب سفر أيوب الوارد في التوراة عربي الأصل. إذ يعتقد أن هذا الكتاب كان قد نظم في الأصل شعراً عربياً في القرن ٢٠ ق.م[3]. في حين أن المستشرق مرجليوت يرى أن لغة هذا السفر تحتوي على تأثيرات آرامية وعربية لا تخطئها العين، وكذلك موقف اسبينوزا الفيلسوف الذي يعتقد أنه مترجم عن أصل عربي مفقود[4]. أمثال هذه الأقوال، لم يقطع بها من قبل علماء التوراة، للسبب ذاته الذي أورده د. كمال الصليبي، وهو أنهم يقرأون توراة مدونة منقطة مصوته تختلف عن لهجات الأصل. ويؤكد هذا الموقف المستشرق «باول كراوس» «طرح نظرية جديدة عن أوزان التوراة الشعرية، سبقها نظريته في أن رسائل تل العمارنة أيضاً، خاضعة لأوزان بحر من بحور الشعر القريبة من بحر الرجز العربي. وقد قدم في محاضرته الأخيرة في جامعة فؤاد الأول بالقاهرة، مثالاً للنظم الشعري في التوراة، فرتل الأبيات العشرة الأولى من الفصل السابع عشر من سفر صموئيل الأول أمام الحاضرين. فكانت نغماتها التي من بحر الرجز واضحة لم تخطئها حتى آذان من لا يعرفون العبرية. وفي حدود هذه الأوزان ومراجعتها على طرائق النطق يمكن الوصول الى أساس مسألة تطور النطق وتغيره الذي أصاب اللغة العبرية في مدى تاريخها وفي لهجاتها الاقليمية. وأصبح من الممكن قراءة جزء كبير من أبيات الشعر الموزونة. وقال كراوس ـ الذي وجد قتيلاً بعد أسابيع ـ: البحث عن طريقة النطق القديمة، تحيي أمامك الأوزان مرة ثانية. ويرى أن قصة يوسف تتألف من قصيدتين تخضع كل منهما لوزن واضح معين[5].

عادة الختان

قُنِّنَ الختان في التوراة، وأصبح فرضاً في شرائع التلمود (كتاب تشريعي مستمد من التوراة)، بعد أن كان عادة منذ ابراهيم وعادة ثابتة عند المسلمين ترجع تاريخياً الى ما قبل الاسلام. يقول الطبري: «قد ابتلي ابراهيم بعشرة أشياء هي في الاسلام سنة: المضمضة والاستنشاق وقص الشارب والسواك ونتف الإبط وتقليم الأظافر وغسل البراجم والختان، وحلق العانة وغسل الدبر والفرج[6]. وجاء في سفر التكوين إصحاح 7/1-4. «هذا هو عهدي الذي تحفظونه بيني وبينكم وبين نسلك من بعدك. يُختن منكم كل ذكر. فتختنون في لحم غرلتكم. فيكون علامة عهد بيني وبينكم. ابن ثمانية أيام يختن. كل ذكر في أجيالكم. يختن ختاناً وليد بيتك والمبتاع بفضّك. وأما الذكر الأغلف الذي لا يختن في لحم غرلته فتقطع تلك النفس من شعبها». هذا العهد بين ابراهيم وقبيلته يشمل حتى البعيد بينهم. وإذا كان البحاثة في الغرب قد أرجعوا هذا العهد لأن ابراهيم في سنيه التسعين قد أنجب ولداً بعد أن ختن، فإننا نجد تلك العادة تتكرر إذ إن الذين ولدوا في تجوال وخروج موسى يختتنون من قبل يشوع ـ سفر يشوع إصحاح 5. إذاً مجمل الأسفار تذكر بالختان كأحد الفروض الأساسية، فيما معظم قبائل الجزيرة كانت تمارس الختان أيضاً (الطهور باللهجات الشعبية الأخرى)، والذي استمر سُنَّة حتى اليوم. من ناحية ثانية فإن الفينيقيين القادمين في البدء من شواطىء البحر الأحمر الى الشام،

كانوا يمارسون الختان برأي الباحث ماير[7]، كما كان عادة مصرية ترجع الى الألف الثالثة قبل الميلاد، وخاصة ختان الكهان بعد عمادتهم بالماء[8].

البعارة أو الفعارة

من عادات المزارعين التي ما زالت حتى يومنا هذا، ترك بعض الانتاج الزراعي للعابرين أو المسحوقين من المزارعين. فعند قطاف العنب مثلاً، يترك العنقود ذو الحبات الأربع أو الخمس، ويترك بعض الغرس من البطاطا وكذا في الأشجار المثمرة. ولذلك تجد بعض المسحوقين «يعفرون» في الأرض الزراعية، أي يقطفون بقايا الانتاج المتروك. البعض يسمي ذلك ! «عفارة، تعفير، أو بعاره» فيها عبرياً تسمى «فعاه»[9]. ففي سفر اللاويين إصحاح 9/19-10: «عندما تحصدون حصيدَ أرضكم. لا تكمل زوايا حقلك في الحصاد. ولقاط حصيدك لا تلتقط، وكرمك لا تعلله ونثار كرمك لا تلتقط. للمسكين والغريب تتركه». ومن العادات الزراعية القديمة التي ما زالت سائدة، هي إراحة الأرض في السنة السابعة وتركها بوراً. وفي العبرية تسمى «شبعيت»، السبعة أو الستة السبتية. لذلك جاء في سفر اللاويين أيضاً: «ست سنين تزرع حقلك. وست سنين تقضب كرمك وتجمع غلتها. وأما السنة السابعة ففيها يكون للأرض سبت عطلة. سبتاً للرب. إصحاح 7/25. وإذا كانت الأعشار قُننت إسلامياً، أي تقديم عشر المحصول لبيت المال، فإنها مقننة أيضاً في التوراة والتلمود ـ معاشروت ـ أي العشار[10]. وفي اللغة يقول الجوهري في الصحاح[11]. «العفر بالتحريك التراب. والعفير من النساء التي لا تهدي لجارتها شيئاً. المعفورة: الأرض التي أكل نبتها. المعافر: الذي يمشي مع الرفق فينال من فضلهم».

الصوم

جاء في سفر زكريا، الإصحاح 19/8: «هكذا قال رب الجنود. إن صوم الشهر الرابع وصوم الخامس وصوم السابع وصوم العاشر يكون لبيت يهوذا ابتهاجاً وفرحاً وأعياداً طيبة». وفي الاصحاح 5/7: «قل لجميع شعب الأرض وللكهنة قائلاً: لمَ صمتم ونحتم في الشهر الخامس والشهر السابع وكذلك هذه السبعين سنة، فهل صمتم صوماً لي أنا». وفي سفر يونان إصحاح 5/3: «فآمن أهل نينوى بالله ونادوا بصوم ولبسوا مسوحاً». إذاً الصيام منصوص عليه في التوراة، ومقنن في التلمود. منه صوم الرابع من شهر (تشري) تشرين أول الذي تبدأ به السنة العبرية، وصوم (جداليا) التي قتلت على يد الملك البابلي، وصوم الغفران ـ الكفارة ـ في العاشر من تشري ولمدة 72 ساعة، وصوم تموز في العاشر منه، وصوم التاسع من آب. وإذا كان الصوم قد استمر طقساً مسيحياً لمدة أربعين يوماً، فإنه وقبل أن يُقَنَّنَ إسلامياً بصوم شهر رمضان، كان عادة أو طقساً عند بعض العرب، ويسمى «التخنث». «فجواد علي» يقول نقلاً عن البلاذري أن عبد المطلب جد النبي «كان أول من تخنث بحراء. وكان إذا أهَلَّ هلال رمضان دخل بحراء، فلم يخرج حتى ينسلخ الشهر فيطعم المساكين ويكثر الطواف بالبيت[12]، أي بالكعبة. ومن أسفار التلمود سفر (تعانيت Ta'anith وفيه أحكام الصوم[13]،

فيما يعتبر المستشرق هرشفلد أن التحنث في العبرية هو تحينوث[14]. والظاهر أن الفارق بين تحنث وتحينوث وتعانيت، فوارق قلب ولهجات. وفي صحاح الجوهري (ج أول ص 280) يرد: «تحنث، أي تعبد واعتزل الأصنام مثل تحنف. وفي الحديث أنه كان يأتي غار حراء فيتحنث فيه».

الرجم

الرجم بالحجارة، عقوبة تاريخية عند معظم قبائل الجزيرة العربية، وهي عقوبة ما زالت سارية المفعول كعادة وسُنّة متبعة، رغم النصوص الدينية المناقضة لها. والرجم تردد كثيراً في التوراة، ففي سفر لاوين إصحاح 27/25: «فكلم موسى بني اسرائيل أن يخرجوا الذي سب الى خارج المحلة ويرجموه بالحجارة». وسفر العدد إصحاح 10/14: «ولكن قال كل الجماعة أن يرجما بالحجارة». هذه العقوبة الصحراوية، كانت تمارس على كل عاصٍ للشرائع، بالذي يحتطب يوم السبت يقتل، «فقال الرب لموسى. قتلاً يقتل الرجل. يرجمه بالحجارة كل الجماعة خارج المحلة». سفر عدد إصحاح 31/15. وتتكرر هذه العقوبة في سفر التثنية ويشوع وصموئيل الثاني وتطال جريمة الزنا وغيرها. وهذه العقوبة لم تكن الوحيدة الممارسة، ففي سفر التثنية 25/1-3، إشارة للجلد أربعين جلدة كعقاب لذنب ينفذه القضاة. من ناحية ثانية كان الرجم كعقاب سائد في الجزيرة العربية، ومورس أيام النبي مرة واحدة في تلك الحادثة الشهيرة لامرأة تسمى «المعمرية» التي رجمت بغير رضاً من النبي. وفيما بعد نصت الآيات على جلد الزاني والزانية وليس رجمهما: «الزانية والزاني فاجلدوا كل واحد منهما مائة جلدة، ولا تأخذنكم بهما رأفة في دين الله إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر. وليشهد عذابهما طائفة من المؤمنين. سورة النور آية 2». وليس من نص في القرآن يشير الى الرجم الذي استمر عادة حتى اليوم، في حين أن المسألة عندما عرضت على المسيح خالف بها أنبياء التوراة وقال: «من كان منكم بلا خطيئة فليرجمها أولاً بحجر». ولم تكن هذه المخالفة الوحيدة للتوراة، فالمسيحية حرمت الطلاق وشجعت عدم الزواج ومنعت الختان ولم تحرم الخمر ولحم الخنزير.

تعدد الزوجات والطلاق

وتعدد الزوجات مسألة وفيرة الحدوث في قبائل الجزيرة، فقد كانت مصدر قوة وجاه وإنتاج عضلات في صراع القلة. لذلك تزخر كتابات المؤرخين عن فلانة التي كانت تحت فلان ثم أصبحت تحت فلان. وهذا من ضمن تعدد أنماط الزواج ومراحلها في الجاهلية. وإذا كان القرآن قد نص على جواز الزواج بأربع، فإن ذلك استدعى العديدين من الذين أسلموا أن يطلقوا العدد الفائض عن هذا الرقم. فالآية الثالثة من سورة النساء جاء فيها: «وإن خفتم ألا تقسطوا في اليتامى فانكحوا ما طاب لكم من النساء مثنى وثلاث ورباع. فإن خفتم ألّا تعدلوا فواحدة أو ما ملكت أيمانكم ذلك أدنى أن لا تعدلوا». وإذا كان الزواج مطلباً ومستحباً في الاسلام، فانه كذلك في التوراة مع تكريس لسيطرة الأبوة على العائلة. «فرأس العائلة في التوراة ـ أو بالعبرية ـ يسمى روش[15]، أي الرأس بعد أن قلبت السين الى شين، والألف الى حرف 5 الفرنسي كما هو سائد في بعض

اللهجات عندنا (شمال لبنان، اللاذقية). وحسب المراحل التاريخية لقصص التوراة، فإن الأب كان باستطاعته بيع ابنته أمَة، أو قتلها وتقديمها أضحية، كما شملت سلطته زوجة الابن حيث يحق له إحراقها إذا زنت[16]. وهذه الحقوق كانت سائدة في الجزيرة العربية الرعوية، وأقلها الوأد عند بعض القبائل والذي خوطب بأروع الآيات: «وإذا المؤودة سئلت، بأي ذنب قتلت». واذا كان الزوج هو البعل والسيد في التوراة، فإنها عربياً أيضاً لها المعنى نفسه، البعل الزوج، وأرض بعل أي أرض مروية من السماء. وهذا المعنى الشائع تجده في صحاح الجوهري (ج 4 ص 1635) حيث يرد: «البعل، الزوج. وللمرأة بعلة. وقولهم من بعل هذه الناقة؟ أي من ربها وصاحبها. والأرض البعل ما سقته السماء أو ما شرب بعروقه من غير سقي ولا سماء. والبعل اسم صنم كان لقوم الياس عليه السلام». وفي التوراة كما هو سائد حتى اليوم في الأرياف والعشائر والقبائل أحقية ابن العم بالزواج من ابنة عمه: «أبويا قال لي يا لوزة بين الجناين. أولاد العم لهم عوزه بين الجناين». هذا الزواج الداخلي أضفي عليه في التوراة وفيما بعد التلمود صفة التقديس وقنن بواجب عدم الزواج من غير يهودية، رغم أن هيسو تزوج من قبائل الحثيين، ويهوذا ابن يعقوب تزوج كنعانية، وموسى تزوج من مدين. وإذا كان اسحق تزوج ابنتي لابان (خاله وأخوه) مقابل العمل سبع سنوات كمهر لكل منهما، فإن المهر كان سائداً في القبائل العربية وما زال عادة وقانوناً. أما في طقوس الزواج، فإن الحجاب الذي تضعه العروس على وجهها حتى باب دار العريس، والذي ما زال بأشكال مختلفة حتى اليوم، نجده في طقوس التوراة (سفر التكوين إصحاح 25/29)، وفي ملحمة جلقامش البابلية: «غطى جلقامش وجه انكيدو كما تحجب العروس». أما الطلاق الذي قنن بالتلمود مع جواز الزواج من أربع، فإنه في التوراة (سفر التثنية إصحاح 24/1-4، وإرميا إصحاح 1/3) مسموح به وخاصة الطلاق بسبب عدم العذرية. كما أن وفاة الزوج كانت تستوجب عند القبائل العبرية، أن يتزوج الأخ زوجة المتوفى. «أخو زوجها يدخل عليها ويتخذها لنفسه زوجة ويقوم لها بواجب الزوج. والبكر الذي تلده يقوم باسم أخيه الميت لئلا يمحى اسمه من اسرائيل. سفر تثنية إصحاح 25/5-6»، فيما التسمية الدارجة في الثقافة الشعبية لأخ الزوج (السلف ـ سلفي)، وغالباً ما يتزوج إمرأة أخيه المتوفى.

في الطقوس

يوجز المقدسي في «البدء والتاريخ» المنسوب له، بعض الطقوس التوراتية، فيقول: «وأما وضوؤهم واغتسالهم فمثل طهارة المسلمين سواء غير أنه ليس فيه مسح الرأس. ويبدؤون بالرجل اليسرى، واختلفوا في شيء منه. ولا يتوضؤون بماء قد تغير لونه أو طعمه أو ريحه ولا يجيزون الطهارة من غدير ما لم يكن عشرة أذرع في عشر. والنوم قاعداً لا ينقض الوضوء ما لم يضع جنبه. ولا يجوز للرجل الصلاة في أقل من ثلاثة أثواب قميص وسراويل وملآءة يتردى بها. ولا يجوز الصلاة للمرأة في أقل من أربعة أثواب. والصلاة فرض عليهم في اليوم والليلة ثلاث صلوات إحداهن عند الصبح والثانية بعد الزوال الى غروب الشمس، والثالثة الى وقت العتمة الى أن يمضي من الليل ثلثه. يسجدون في دبر كل صلاة سجدة طويلة ويزيدون يوم السبت وأيام الأعياد خمس صلوات سوى ما كانوا يصلونها. وكان واجباً عليهم الحج في كل سنة ثلاث مرات حين كان الهيكل عامراً

والمذبح قائماً. وأما الصوم فيجب عليهم. . ويغسلون الموتى ولا يصلون عليهم، وأما الزكاة فالواجب عليهم أن يخرج العشر من أموالهم كائناً ما كان من السوائم والناض. ونكاحهم لا يصح إلا بولي وخطبة وثلاثة شهود ومهر. وإذا زفت وكل أبو المرأة رجلاً وامرأة بباب البيت الذي يقتضها فيه الزوج وفرشوا لها ثياباً بيضاً. فإذا نظر الزوج الى الثياب. وشهد بما رأيا اقتضها، فإن لم يجدها بكراً رجمت. ولا يجوز لهم التمتع بالإماء إلا أن يعتقوهن وينكحوهن. وأما طلاقهم وخلعهم فإنهم لا يجوز لهم ذلك، إلا أن يقفوا منهم على زنا أو سحر أو رفض دين. ومن أراد أن يطلق يحضر الشهود وكتاب الطلاق ويقول لها: أنت طالق مني مائة مرة ومختلعة مني وفي سعة أن تتزوجي من شئت. ولا يقع الطلاق على الحامل. والحدود عندهم على خمسة أوجه: الحرق على من زنى بأم امرأته أو بربيبته أو بامرأة ابنه. والقتل على من قتل. والرجم على المحصن إذا زنى أو لاط، وعلى المرأة إذا مكنت البهيمة من نفسها. والتعزير على من قذف. والتغريم على من سرق، والبينة على المدعي واليمين على من أنكر[17].

هذه بعض الطقوس والشرائع العبرانية التي لخصها المقدسي، والتي لا تحتاج الى مقارنة أو تعليق بما كان سائداً في الجزيرة، أو ما قنن إسلامياً، أو ما ظل عادة وسنة متبعة.

الجراد ولحم الخنزير

الجراد في شبه الجزيرة العربية، مادة غذاء ما زالت تباع في الأسواق، تماماً كحيوان الضب (شبيه التمساح) الذي يؤكل. وأكل الجراد دلالة على التصحر الذي أصاب المنطقة تاريخياً، والذي ساهم في افناء نباتها أيضاً. وكان الجراد قبل الاسلام يباع بالصاع (مكيال للحبوب ما زال مستخدماً حتى اليوم)، وقد جاء في التوراة: «وهذه من تكرهونها من الطيور. لا تؤكل إنها مكروهة. النسر والأنوق والعقاب والحداة والباشق على أجناسه، وكل غراب على أجناسه، والنعامة والظليم والساف والباز على أجناسه، والبوم والغواص والكركي والبجع والقوق والرخم واللقلق، والببغاء على اجناسه، والهدهد والخفاش، وكل دبيب الطير الماشي على أربع فهو مكروه لكم. إلا هذا تأكلونه من جميع دبيب الطير الماشي على أربع. ما له كراعان فوق رجليه يثب بهما على الأرض. هذا منه تأكلون. الجراد على أجناسه والدبا على أجناسه والحرجوان على أجناسه، والجندب على أجناسه. سفر لاويين إصحاح 11/13-23». أما لحم الخنزير الذي لم يكن يؤكل عند معظم الفراعنة، بل وينبذ الذين يربونه، فقد كان مكروهاً عند بعض القبائل في الجزيرة، ومرجع ذلك أن الخنزير من الماشية «المطواعة»، إذ في المجتمع الرعوي كثيراً ما يمارس الرعاة الجنس مع مواشيهم، ويعتبر الخنزير من حيث الشكل والطواعية أسهل المواشي في ذلك. هذه الخلفية تشكل أساس تجنب أكله، حيث ما زال النعت بالخنزير في الحديث اليومي يحمل شتى المضامين الدونية. وإذا كان تحريم أكله قد قنن إسلامياً، فانه كان محرماً في التوراة: «والخنزير لأنه يشق ظلفاً ويقسمه ظلفين لكنه لا يجتر. فهو نجس لكم. من لحمها لا تأكلوا وجثتها لا تلمسوا. إنها نجسة لكم. سفر لاويين إصحاح 11/7-8».

ومن المحرمات التي قننت إسلامياً (انسجاماً مع تفسير الفقهاء، أن الاجتناب أقوى من التحريم)، يأتي

الخمـر الذي وعـد به المؤمن بـالجنة، فيـما عامـوس في التوراة نبي غـاضب على مخـالفـة اليهـود للشـرائـع يقـذف المنحرفين في سلوكهم: «المضطجعون على أسرة من العـاج، والمتمددون عـلى فرشهم، والآكلون خـرافاً من الغنم وعجولاً من وسط الصيرة. الهـاذرون مع صـوت الربـاب، المخترعـون لأنفسهم آلات الغناء كـداود. الشاربـون من كؤوس الخمـر والذين يـدهنون بـأفضل الادهـان ولا يغتمون عـلى انسحاق يـوسف. سفر عـاموس إصحـاح 6/4-6».

النذر والقرابين

النذر والقرابـين المرتبـطة بالثقـافة الشعبيـة، التي ما زالت سـائدة الى جـانب تقنينها التشـريعي، توجـه تاريخي اجتمـاعي تدرج مـع تعدد الآلهـة من المحسوس الى المجـرد. وهي ظاهـرة عالميـة يظل جـوهرهـا ويتبـدل مكـانها وطقسهـا. ففي الجزيـرة كانت النـذر والأضحيات تقـدم للأصنـام المتعددة من الـلات والعزى، (أسـاق ونـائلة) وود، ومنى ونسر ويفوث ويعل والأشجار والنار. وتـذهب الروايـات المتأخـرة عن عبد المـطلب الى نسج روايـات عن محاولته إيفاء النذر على طريقـة ابراهيم. وقـد كان نـذر أن ينحر أحـد أبنائـه عند الكعبـة إذا رزق بعشرة من الذكور[18]. ولم تكن الأصنام ثابتة بمعظمها، بل كانت تنقل مع القبيلة كما يشير جواد علي، ليكسب أصحابها، اتباعاً وعبدة يستفاد منهم بما يتقربون به الى الصنم من قـرابين ونـذر[19]. وفي الثقافـة الشعبية يستمـر النذر ايفـاء لقوة يؤمن بها أدت طلبـاً للناذر. والنـاذر غالبـاً إمرأة. فتلك تنـذر السير حـافية القـدمين الى ذاك المقـام، أو تنذر تقديم أضحية (رأس كامل من الغنم) لذاك المقام، أو توزع ملحاً على الجيرة، أو تنذر ابنتها للقديسة تريزا بأن تلبسها ثوب القديسة حتى سن معينة. . وفي اللغة «النذر، واحد النـذور. نذرت لله كـذا. انذُر وانـذِر. ونذرت مالي فأنا انذره نذراً[10]. وفي التلمود فصل نذاريم (النـذور) والميم للجمع. وفصـل النذيـر أو الناذر Nazarite. الأول فيما يقدم والثاني في الشروط. ثم فصل «بكورت». الباكورة، الذي يتناول القـوانين المتعلقـة بالمـولد البكـر من الانسان والماشية[21]. أما في التوراة فدلالات تقديم النذر متواترة بـالحاح، ففي سفـر عامـوس 10/5 «أنهم في الباب يبغضون المنـذر ويكرهـون المتكلم بالصـدق». وفي سفر يـونان، وهـو في الثقافـة الشعبية ذو النـون، الذي بلعه الحوت (في اللغة العربية الحوت هـو النون وجمعـه نونـان) وبعد أن وقـع في البحر «خـاف الرجـال من الرب خوفاً عظيماً وذبحوا ذبيحة الـرب ونذروا نـذوراً. سفر يـونان إصحـاح 15/1-17. ويتكرر النـذر في سفر الخـروج والعـدد ولاويين». وكلم الـرب موسى قـائلاً: كلم بني اسـرائيل وقـل لهم. إذا أفرز إنسـان بذراً حسب تقـويمك نفوساً للرب. . . وعلى قدر مـا تنال يـد الناذر يقـومه الكـاهن. إصحاح 1/27-8». وكـانت المرأة المقلة في النسـل «تنذر لربها يهوه، ان رزقت أطفالاً وعاشـوا، فإنها إنمـا تهب أكبرهم لـلإله يهـوه، ليصبح خـادماً للكهنـة[22]. أما نسـاء العـرب قبـل الاسـلام، فـإن بعضهن كن ينـذرن إذا مـا رزقن بـولـد أن يهـودنـه. أي يجعلنـه عـلى دين اليهود[23]. ولذلك جاءت الآية تحرم ذلك: «لا إكراه في الدين، قد تبـين الرشـد من الغي. سورة البقـرة). وفي القرآن: «ثم ليقضوا تفتهم وليوفوا نذورهم وليطوفوا بالبيت العتيق. سورة الحج. آية 29.

الثأر والعشيرة

الاشارة للعشائر والقبائل، تتكرر في أسفار التوراة. ويكاد سفر العدد يقتصر على تعداد العشائر. (عشيرة فلان، وبنو فلان). وإذا كان بيت يوسف قد انقسم الى قسمين منهما قبائل افرايم ومنسي وبنيامين (أي ابن اليد اليمنى)، بمعنى الجنوب، فإن د. محمد بيومي مهران يرى أن بنيامين له المعنى نفسه اليمنى جنوب الجزيرة مقابل الشآم في الشمال[24]. في هذه القبائل المرتحلة العابرة، كان القانون القبلي ذاته الذي ساد الجزيرة وهجراتها البابلية حيث قنن في شرائع حمورابي. (عين بعين سن بسن). وإذا كانت الأمثال الشعبية: «أخذ التارمش معيار، ودية البدوي عباءته» فإن الثأر والدية والدم المهدور مسائل ما زالت سائدة في التجمعات الحاضرة التي لم تنخرط في اطار عمل يفكك العشيرة والقبيلة، والتي لا تقدم على تقبل التعازي أو إقامة مراسم عامة للدفن قبل الأخذ بثأر القتيل. وهذه الظلال من العلاقات تخاطب علاقات تاريخية قبلية، حيث اللجوء والثأر وإهدار الدم مسائل ترتبط بقصص العرب القديمة. قال عبيد بن الأبرص مستعطفاً الملك حجر والد امرىء القيس على بني أسدٍ شقت شملهم:

في كل وادٍ بين يثرب
فالقصور الى اليمامة
تطريب عان أو صياح
محرقٍ أو صوت هامة.

والهامة، طائر يألف المقابر ويقال له الصدى. وكانوا يقولون: إن القتيل تخرج هامة من رأسه فلا تزال تقول: اسقوني اسقوني حتى يقتل قاتله[25]. وفي سفر التكوين إصحاح 14/4، يقول هابيل للرب بعد أن قتل أخاه: «إنك قد طردتني اليوم عن وجه الأرض. ومن وجهك أختفي وأكون تائهاً وهارباً في الأرض. فيكون كل من وجدني يقتلني» وفي سفر الخروج إصحاح 5/20، وضوح في شيوع الذنب ليس على مرتكبه فقط ولكن على ذريته: «أنا الرب إلهك إله غيور افتقد ذنوب الآباء في الأبناء في الجيل الثالث والرابع من مبتغضي». وفي سفر التكوين إصحاح 6/9: «سافك دم الإنسان يسفك دمه. وفي الإصحاح 21/12-23: «من ضرب انساناً فمات يقتل قتلاً. وان حصلت أذية تعطي نفساً بنفس، وعيناً بعين، وسناً بسن، ويداً بيد ورجلاً برجل وكياً بكي وجرحاً بجرح ورضاً برض».

النسيء والتقويم السنوي.

كان لسان إسماعيل سريانياً، هذا ما قاله الطبري والمسعودي، وكانت شهور السريان (السريانية احدى اللهجات الآرامية وأبجديتها: أبجد هوز) هي الشهور المتبعة اليوم (كانون أول، كانون ثاني، شباط...). وهي أسماء الأشهر العبرية نفسها فيما عدا أربعة. فالأشهر العبرية هي: «تشري، حشوان، كلو، طبيت، شباط، آذار، نيسان، أيار، سيوان، تموز، آب، أيلول». وكان التقويم العبري يعتمد على الدورة القمرية كما

كـان سائـداً عند العـرب قبل الاسـلام. وبما أن أيـام الأشهر لم تكن تتـوازى مع الـدورة السنويـة الكاملة، كـان العرب والعبران يلجأون للنسيء، أي لحذف عدة أيام واعادة التقويم كي تـظل الأشهر في أوقـاتها الثـابتة. وظـل العـرب يستخدمـون النسيء كما العبـران حتى جاءت الآيـة: «إنما النسيء زيـادة في الكفـر. سـورة التـوبـة الآيـة ٣٦». وإذا كان التقويم العبري كالعربي غير ثابت لاعتماده على الدورة القمـرية، فـإن النسيء قبل الاسـلام كان يحتاج لسلطة تحدده. فيقول المسعودي» وكانت النساءة في بني مالك بن كفانة... وآخـرهم أبو تمـامة، وذلـك أن العـرب كانت إذا فـرغت من الحج وأرادت الصـدر اجتمعت إليه، فيقـوم فيهم، فيقـول: اللهم إني قـد أحللت أحد الصفرين الصفر الأول، وأنسأت الآخر للعام المقبل[26].

هذا بعض المشترك في الثقافة الشعبية، ما بـين ما كـان سائـداً في الجزيـرة قبل الإسـلام وبعده، وبـين ما ورد في التـوراة وقنن لاحقاً في التلمـود. إن هذا التـوازي يؤكد عـلى ما ذهب إليـه د. كمال الصليبي في كتـابـه، من أن مسرح قبائل التوراة هو في غرب جزيرة العرب.

المراجع

(1)«بيـروت المساء» راجـع المقالات الأربـع «حول التـوراة جاءت من جـزيرة العـرب. تاريـخ 1 و9 و16 و23 كـانـون أول 1985. فرج الله صالح ديب.

(2)ول ديورانت. قصة الحضارة. طبع الجامعة العربية، ج 2، ص 388-390.

(3)أحمد سوسة. العرب واليهود في التاريخ. طبع دمشق، ص 217، كذلك جـرجي زيدان، تـاريخ آداب اللغـة العربيـة، ج أول، ص 26.

(4)د. محمد بيومي مهران. حضارات الشرق الأدنى. اسرائيل، ج 1، 1983، الاسكندرية، ص 68.

(5)مجلة الأديب 1944. عدد أيلول، ص 56.

(6)الطبري. تاريخ الأمم والملوك. طبعة خياط 1968. ج اول ص 312.

(7)أحمد سوسة. المرجع السابق، ص 218.

(8)سيرج سونيرون. كهان مصر القديمة. ترجمة زينب الكردي. الهيئة المصرية 1975، ص 42.

(9)د. أسعد رزوق. التلمود والصهيونية. منظمة التحرير الفلسطينية 1970، ص 155.

(10)المرجع السابق، ص 156.

(11)الجوهري: الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية. دار المعلم للملايين، ط 3-1979، ج 2، ص 702.

(12)د. جواد علي. تاريخ العرب في الاسلام. دار الحداثة 1981، ص 129..

(13)د. أسعد رزوق. المرجع السابق، ص 162.

(14)د. جواد علي. ص 163.

(15)د. محمد بيومي مهران. المرجع السابق، ج 2، ص 241.

(16)المرجع السابق، ص 241، وسفر التكوين 7/21 و37/42 واصحاح 24/38.

(17)المقدسي. البدء والتاريخ. الجزء الرابع. باريس 1907 طبع كليمان لوار، ص 36-39.
(18)جاد المولى، البجاوي، ابراهيم. قصص العرب، ج أول 1939 القاهرة، ص 78.
(19)د. جواد علي. المرجع السابق، ص 112.
(20)الصحاح، ج 2، ص 825.
(21)د. أسعد رزوق، المرجع السابق، ص168.
(22)د. محمد بيومي مهران. الجزء2، ص 150.
(23)المرجع السابق، ص 214.
(24)المرجع السابق، ص 293.
(25)موسى سليمان. القصص العربي الصميم. دار الكتاب اللبناني 1984، ص 192.
(26)المسعودي. مروج الذهب. دار الأندلس. ج 2، ط 3-1978، ص 30.